Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد بدأ المؤلف فى تناول بعض من شواهد البديع؛ ليثبت ـ حسبما ذكر ـ أن المقام قد اقتضى هذا الفن البديعى أو ذاك؛ وبهذا الاقتضاء ـ كما رأى المؤلف ـ يصبح البديع محسناً ذاتياً لاعرضياً، وهذا التناول كان يتوقع منه إضافة جديدة يقدمها المؤلف، ولكن يخيب هذا التوقع؛ إذ لم يعتمد المؤلف فى إثبات ما أراد إثباته ـ على منهج جديد أو مجرد رؤية أو نظرة جديدة، وإنما اعتمد كل الاعتماد على الأسلوب الإنشائى الخطابى، كقوله فى السجع: «وإذا كانت للسجع فائدة ونكته لا تقل عما ذكروه للجناس، إذ إنه يخامر العقول مخامرة الخمرة، ويخدر الأعصاب إخدار الغناء، ويؤثر فى النفوس تاثير السحر، ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم؛ لما يحدثه من النغمة المؤثرة والموسيقى القوية التى تطرب لها الأذن، وتهش لها النفس، فتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملل أو يخالطها فتور، فيتمكن المعنى فى الأذهان، ويقر فى الأفكار.»[٣٣]

وكقوله معبراً عن إنصافه للبديع عامة: «هذه الصنعة تخلع على النظم ثوب الرونق، وتكسبه الروعة؛ إذا كانت سهلة سمحة متسمة بسيمى الطبع القوى، والفطرة الجياشة التى تحرص على المعنى فتوفر له كل ما يكسبه القوة والإبانة والوضوح، وتجلب له من الألفاظ ما يلائمه ويتفق معه، فالصبغ البديعى بهذا الوصف، إن بدا فى رسالة كان عينها، أو فى خطبة كان وجهها، أو فى قصيدة كان بيتها»[٣٤].

وفى النهاية فإن المؤلف مازال يتعامل مع البديع بوصفه زخرفة ونقشا؛ وإلا لما عبر عنه فى عنوان دراسته بـ (الصبغ البديعى).

وفكرة أن البديع محسن ذاتى لا عرضى، يرددها ـ أيضاً ـ الدكتور بسيونى عبدالفتاح بسيونى، وبالأسلوب نفسه؛ الأسلوب الإنشائى الخطابى، كما يعلن عن موقفه إزاء تقسيم فنون البديع إلى معنوية ولفظية، بقوله: «كما أننا لا نوافق على تقسيم هذه الفنون إلى محسنات معنوية وأخرى لفظية، إذ لا يتاتى الفصل بين اللفظ والمعنى، فالألفاظ أجساد للمعانى، ولا يظهر للفظ مزية إلا من خلال النظم الذى يسلك فيه، وعندما تتامل الألوان البديعية التى وضعت فى القسم المعنوى، ثم تنظر إلى ألوان القسم اللفظى، يتضح لك ضعف هذا التقسيم، إذ لا تجد فرقاً بين تلك الألوان؛ أو بمعنى آخر لا تلمس فرقاً بين الحسن الذى يضيفه اللون من هذه الألوان على المعنى وتكتسبه الصياغة والعبارات؛ ولذا فلن نعتد بهذا التقسيم، وسيكون هدفنا ـ كما قلت ـ تجلية هذه الألوان، والكشف عن دقائقها، وإبراز مكانتها البلاغية، وبيان وإيضاح أن الزينة المنبعثة زينة ذاتية يقتضيها المقام، وليست زينة عرضية شكلية تاتى بعد رعاية المطابقة للحال ووضوح الدلالة[٣٥].